تعامل النبي ﷺ مع كبار السنّ

فقد مضتْ سـنّةُ الله تعالى في الإنسـان أن جعله يمرُّ بمراحلَ متعدّدة في رحلته الدنيوية، فيبدأ وليداً ضعيفاً، ثمَّ شابّاً قويّاً، وأخيراً شيخاً ضعيفاً.

قـال الله تعـالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ولقـد حرص الإسـلامُ عـلى العناية بمرحلة الشـيخوخة، وجعلها محطـة تكريم وعناية خاصّـةٍ؛ وذلـك لأن صاحبهـا يتّصفُ بالضعـف، ويحتاج إلى مـن يخدمه، ويقوم بشـئونه. ولذلك فهي مرحلة حرجة.

وقد كان النبي ﷺ يقول: «**اللهمَّ إنّي أعوذُ بكَ منَ العجزِ، والكسلِ، والجبنِ، والهرمِ**»(١).

وكان يقول أيضا: «**اللهمَّ إنّي أعوذُ بكَ أنْ أردَّ إلى أرذلِ العمرِ**»(٢).

وأرذلُ العمرِ هو أخسّـه وأنقصه؛ لأن الإنسـان تنقصُ فيه قواهُ الظاهرة والباطنة، حتى قواه العقلية تنقصُ، فينسى الإنسان ما كان يعلمه(٣).

قال النووي: «أمّا استعاذته ﷺ منَ الهرم، فالمراد بهِ الاستعاذة منَ الرّدِّ إلى أرذلِ العمر؛ كما جاءَ في الرّواية الّتي بعدها، وسبب ذلكَ ما فيهِ منَ الخرف، واختلال العقل والحواسِّ والضّبط والفهم، وتشويه بعض المناظر، والعجز عنْ كثير منَ الطّاعات، والتّساهل في بعضها»(٤).

---

(١) رواه البخاري [٢٨٢٣]، ومسلم [٢٧٠٦] عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري [٢٨٢٢] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) تفسير السعدي [١/ ٤٤٤] بتصرف.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [١٧/ ٢٩].

ولقد كان للرسول ﷺ معاملةٌ خاصّة مع كبارِ السّنِّ، فقد أولاهم كلَّ رعايةٍ واهتمام، ومع أنه ﷺ كان حسن الخلقِ مع جميع الناس، إلا أنه كان أشدَّ عطفاً ورحمة ورفقاً على الضعفاء، كالأطفال، والنساء، وكبار السّنِّ.

وقد عدَّ النبيُّ ﷺ الرجل الكبير من خير الناس إذا حسن عمله:

فعن أبي بكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلاً قالَ: يا رسولَ الله، أيُّ النّاسِ خيرٌ؟

قالَ: «**منْ طالَ عمرهُ، وحسنَ عملهُ**».

قالَ: فأيُّ النّاسِ شرٌّ؟

قالَ: «**منْ طالَ عمرهُ، وساءَ عملهُ**»(١).

قالَ الطّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الأوقاتِ والسّاعاتِ كرأسِ المالِ للتّاجرِ، فينبغي أنْ يتّجرَ فيما يربحُ فيهِ.

وكلّما كانَ رأسُ مالهِ كثيراً كانَ الرّبحُ أكثرَ، فمنِ انتفعَ منْ عمرهِ بأنْ حسنَ عملهُ فقدْ فازَ وأفلحَ، ومنْ أضاعَ رأسَ مالهِ لمْ يربحْ، وخسرَ خساراً مبيناً»(٢).

وقال ﷺ: «**ليسَ أحدٌ أفضلَ عندَ الله منْ مؤمنٍ يعمّرُ في الإسلامِ؛ لتسبيحهِ، وتكبيرهِ، وتهليلهِ**»(٣).

وقال ﷺ: «**خياركمْ أطولكمْ أعماراً، وأحسنكمْ عملاً**»(٤).

وكان يحثُّ أمّته على توقيرهم واحترامهم:

عنْ أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ منْ إجلالِ الله: إكرامَ ذي الشّيبةِ المسلمِ، وحاملِ القرآنِ غيرِ الغالي فيهِ والجافي عنهُ، وإكرامَ ذي السّلطانِ المقسطِ**»(٥).

---

(١) رواه الترمذي [٢٣٢٠] وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٢٩٧].

(٢) تحفة الأحوذي [٦/ ٥١٢].

(٣) رواه أحمد [١٤٠٤] عن طلحة بن عبيد الله، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٥٣٧١].

(٤) رواه الحاكم [١٢٥٥] عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٢٦٣].

(٥) رواه أبو داود [٤٨٤٣] وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٢١٩٩].

«**إنَّ منْ إجلال الله**» أيْ: تبجيله وتعظيمه.

«**إكرام ذي الشّيبة المسلم**» أيْ: تعظيم الشّيخ الكبير في الإسلام بتوقيرِهِ في المجالس، والرّفق بهِ، والشّفقة عليهِ، ونحو ذلكَ.

وعدَّ ذلك منْ إجلال العبد لربّه، وتبجيله وتعظيمه له؛ وذلك لحرمة الكبير عند الله؛ ولما له من السابقة في الإسلام؛ ولما له من الحق على غيره.

كما أن في ذلك إظهاراً لحقّه على المجتمع الذي يعيش فيه؛ لأن هذا حق أعطاه الشرع إياه.

«**وحامل القرآن**» أيْ: وإكرام قارئهِ، وحافظه، ومفسّره.

«**غير الغالي فيهِ**» يعني: غير المتجاوز الحدّ في العمل بهِ، وتتبّع ما خفيَ منهُ، واشتبهَ عليهِ منْ معانيه.

«**والجافي عنهُ**» أيْ: وغير المتباعد عنهُ، المعرض عنْ تلاوته وإحكام قراءته، وإتقان معانيه والعمل بما فيه.

«**وإكرام ذي السّلطان المقسط**» أيِ: العادل[1].

ثم إن النبي ﷺ جمع في هذا الحديث بين المسنِّ، وحاملِ القرآنِ، والسلطان، وقدّم المسنَّ، كأنه يقول: وقّرْ المسنَّ كما توقّرُ السلطان والرئيس والحاكم، وعظّمِ المسنَّ كما تعظّمُ حامل القرآن الحاذق.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

جاءَ شيخٌ يريدُ النّبيَّ ﷺ، فأبطأَ القومُ عنهُ أنْ يوسّعوا لهُ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**ليسَ منّا منْ لمْ يرحمْ صغيرنا، ويوقّرْ كبيرنا**»[2].

وفي رواية: «**منْ لمْ يرحمْ صغيرنا، ويعرفْ حقَّ كبيرنا، فليسَ منّا**»[3].

---

(١) عون المعبود [١٣/ ١٣٢].

(٢) رواه الترمذي [١٩١٩] وصححه الألباني في الصحيحة [٢١٩٦].

(٣) رواه أبو داود [٤٩٤٣] عن عبدِ الله بنِ عمرٍو، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٦٥٤٠].

«**فليسَ منّا**» أيْ: ليسَ على طريقتنا، وهوَ كنايةٌ عنِ التّبرئة؛ حيث إنه ﷺ تبرّأ من أن يكونوا من حزبه؛ إذ ليس المسلم من لا يحترم الكبير، وليس من المجتمع المسلم من لم يوقّر مشايخه وأكابره من المسنين.

وقوله: «**ويعرف حقَّ كبيرنا**» أيْ: بما يستحقّهُ منَ التّعظيم والتّبجيل.

وقوله ﷺ: «**يوقّرْ كبيرنا**» أبلغ من قول: «يوقر الكبير»؛ ليقرّر أن الاعتداء على الكبير بالقول، أو الفعل، أو الإشارة، هو اعتداءٌ على جناب رسول الله ﷺ الذي نسبَ المسنَّ إليه، وانتسب إليه، بقوله «**كبيرنا**».

ولذلك كان الصحابة يعرفون لكبار السّنِّ قدرهم:

ذكر ابن كثير عن طلحة بن عبيد الله قال: خرج عمر ليلةً في سواد الليل فدخل بيتاً، فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مقعدةٌ.

فقلتُ لها: ما بالُ هذا الرجل يأتيكِ؟

فقالت: إنه يتعاهدني مدّة كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرجُ عني الأذى[1].

ومثل هذه الصّور المشرقة في معاملة كبارِ السّنِّ ورعاية المسنين تأتي لتبيّنَ عوار المجتمعات غير الإسلامية، حيث تطالعنا الأخبارُ بين حين وآخر عما يحدثُ لبعض المسنين هناك، ومدى العزلة التي يعيشون فيها.

ذكرت إحدى التقارير أن حقوق المسنين منتهكة في شتى أنحاء العالم، وأنهم يعانون من الإهمال والفقر، وأن أعدادا كبيرة منهم تعيش دون معاش أو دخل منتظم.

ففي تقرير بعنوان «حالة المسنين في العالم عام ٢٠٠٢» وشمل ٣٢ دولة، أن المسنين محرومون من الرعاية الصحية والتعليم، وأن الحكومات وصانعي القرار يتجاهلونهم فيجدون أنفسهم معزولين عن المجتمع.

وقال أحد معدّي التقرير: «كأنك حين تبلغ الستين لا تعامل كإنسان».

---

(١) البداية والنهاية [٧/ ١٥٣].

بل إن بعضَ قساةِ القلوب يطالبون بالتخلّص من كبار السّنِّ بدعوى عدم جدواهم!

ومما يزيد المشكلة تعقيداً أن عدد المسنّينَ في العالم في تزايدٍ مستمر.

إحصائيات المسنّينَ عالميّاً: تشيرُ الإحصائيّاتُ السّكانية إلى أن القرن العشرين شهد زيادةً كبيرةً في أعداد المسنين في معظم دول العالم، فقد وصلتْ نسبة المسنّينَ في عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م إلى ٣٧٦ مليون نسمة في العالم.

وقفز العدد إلى ٤٢٧ مليون نسمة في عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، وبنسبة ٨، ٨٠٪ من سكان العالم، وكذلك ارتفع في عام ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م؛ ليصل إلى ٥٩٠ مليون نسمة.

ويتوقّعُ أن يتضاعفَ إلى ١١٧١ مليون نسمة عام ١٤٤٠هـ/ ٢٠٢٠م، وأن يجد العالم نفسهُ وفي سكانه ٢٥٪ من المسنّينَ[1].

إن المجتمعاتِ الأوربيّةَ الآن تشيخ؛ لقلّةِ عددِ المواليد، وكثرةِ الوفياتِ؛ ولذلك تجدُ الشبابَ عندهم قليلا.

هذا بخلاف مجتمعاتنا الإسلاميّةِ فتجد نسبةَ الشباب فيها عاليةً نظرة لكثرةِ المواليد.

إن كبار السّنِّ حينما يرونَ عقوقَ الأبناء للآباء، وإهمالَ المجتمعِ لهم يقولون: لماذا ننجبُ إذا كان هذا هو جزاءنا من أبنائنا في النهاية؟

إن الكلبَ أوفى لنا منهم وأنفعُ، فتربيةُ الكلبِ أولى من تربية الابنِ العاقِّ!

ولذا نجدُ من احتفائهم بالكلاب وحبهم لتربيتها العجبَ العجابَ.

فنجد في الغرب مستشفياتٍ للكلاب، وفنادقَ للكلاب، وبدلات للكلاب، ويتركون أطفال البشر يقتلهم الجوع والمرض!

وبفضل الله يلقى كبارُ السّنِّ في مجتمعاتنا -إلا القليل- الاحترامَ والتبجيلَ في ظلِّ التعاليمِ الإسلاميّةِ الراقيةِ التي تحثُّ على إكرامهم، وبرّهم.

---

(١) من موقع (http://fac.ksu.eDu.sa/assaLManea/pubLIcatIons).

إن كبيرَ السنِّ عندنا حينما يدخلُ المستشفى تجدُ أولادهُ يتناوبونَ على خدمته، وزياراته، بل لا يكادون يتركونه لحظة.

وكان ﷺ يقدّرُ كبرَ سنّهم، وضعفهم، فيكون هو المبادرَ للذهاب إليهم:

فلـمّا دخـلَ ﷺ مكة فاتحـاً ودخل المسـجد الحرام أتاه أبـو بكر الصديق بأبيـه أبي قحافة يعوده، فلمّا رآهُ رسولُ الله ﷺ قالَ: «**هلّا تركتَ الشّيخَ في بيتهِ حتّى أكونَ أنا آتيهِ فيهِ**».

قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ الله هوَ أحقُّ أنْ يمشيَ إليكَ منْ أنْ تمشيَ أنتَ إليهِ.

قالَ: فأجلسهُ بينَ يديهِ، ثمَّ مسحَ صدرهُ وقالَ لهُ: «**أسلمْ**» فأسلمَ[1].

وفي هذا الحديث عدّةُ جوانبَ من تقدير النبي ﷺ لهذا الشيخ الكبير، ومن ذلك:

أنـه أرادَ أن يأتيهُ بنفسـه إلى بيته، وأنه أجلسـهُ بين يديه، وفي هذا مـن التكريم ما فيه، ثم مسحَ على صدره.

وكان يحسنُ استقبالهم:

وقد سـبق معنا قصةُ اسـتقباله للعجوزِ التي كانت صديقةً لخديجةَ، وأنها لّما دخلتْ عليه قال لها: «**كيفَ أنتمْ، كيفَ حالكمْ، كيفَ كنتمْ بعدنا؟**».

قالت عائشة: يا رسولَ الله تقبلُ على هذهِ العجوزِ هذا الإقبالَ!

فقالَ: «**يا عائشةُ، إنّها كانتْ تأتينا زمانَ خديجةَ، وإنَّ حسنَ العهدِ منْ الإيمانِ**»[2].

فقد أحسـنَ اسـتقبالها، وسـألَ عن أحوالها، وهذا التعاملُ الذي عامل به النبيُّ ﷺ هذه العجوزَ الكبيرةَ في السّنِّ يبيّنُ ما كان عليه النبي ﷺ من حسنِ الأخلاقِ، وحسنِ المعاملةِ.

وكان يمازحهم:

وتقدم قريباً حديث العجوز التي أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة.

---

(١) رواه أحمد [٢٧٠٠١] وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان [٧١٦٤].

(٢) أخرجه الحاكمُ في المستدرك [٤٠] وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة [٢١٦].

فقال: «**يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز**».

قال: فقال: «**أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز؛ إن الله تعالى يقول:** ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]»[١].

وكان يطمعهم في رحمة الله ولا يقنطهم منها:

عنْ عمرو بنِ عبسةَ قالَ: «جاءَ رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ شيخٌ كبيرٌ يدّعمُ على عصاً لهُ.

فقالَ: يا رسولَ الله إنَّ لي غدراتٍ وفجراتٍ[٢] فهلْ يغفرُ لي؟

قالَ: «**ألستَ تشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله؟**».

قالَ: بلى، وأشهدُ أنّكَ رسولُ الله.

قالَ: «**قدْ غفرَ لكَ غدراتكَ وفجراتكَ**»[٣].

وفي رواية: فانطلق وهو يقول: الله أكبر الله أكبر[٤].

وكان من وصيته ﷺ لأصحابه في الغزو: ألا يقتل كبير السن، إلا أن تكون له معونة في القتال:

عن بريدةَ بن الحصيب رضي الله عنه قالَ: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا بعثَ سريّةً يقولُ: «**لا تقتلوا شيخاً كبيراً**»[٥].

قال الطحاوي: «النّهيُ منْ رسولِ الله ﷺ في قتلِ الشّيوخِ في دارِ الحربِ ثابتٌ في الشّيوخِ الّذينَ لا معونةَ لهمْ على شيءٍ منْ أمرِ الحربِ، منْ قتالٍ، ولا رأيٍ.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل [ص١٩٩]، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٩٨٧].

(٢) الفجرات: جمع فجرة، وهي المرة من الفجور، وهو اسم جامع لكل شر.

(٣) رواه أحمد [١٨٩٣٩]، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح بشواهده.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله [١٤٤].

(٥) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار [٥١٨٤]، وأشار إلى تصحيحه.

وحديثُ دريدٍ[١] على الشّيوخِ الّذينَ لهمْ معونةٌ في الحربِ كما كانَ لدريدٍ، فلا بأسَ بقتلهمْ، وإنْ لمْ يكونوا يقاتلونَ؛ لأنَّ تلكَ المعونةَ الّتي تكونُ منهمْ أشدُّ منْ كثيرٍ منَ القتالِ، ولعلَّ القتالَ لا يلتئمُ لمنْ يقاتلُ إلّا بها، فإذا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ قتلوا.

والدّليلُ على ذلكَ قولُ رسولِ الله ﷺ في حديثِ رباحٍ أخي حنظلةَ في المرأةِ المقتولةِ «**ما كانتْ هذهِ تقاتلُ**»[٢] أيْ: فلا تقتلُ، فإنهّا لا تقاتلُ، فإذا قاتلتْ قتلتْ، وارتفعتِ العلّةُ الّتي لها منعَ منْ قتلها.

وفي قتلهمْ دريدَ بنَ الصّمّةِ للعلّةِ الّتي ذكرنا دليلٌ على أنّهُ لا بأسَ بقتلِ المرأةِ إذا كانتْ أيضاً ذاتَ تدبيرٍ في الحربِ كالشّيخِ الكبيرِ ذي الرّأيِ في أمورِ الحربِ، فهذا الّذي ذكرنا، هوَ الّذي يوجبهُ تصحيحُ معاني هذهِ الآثارِ»[٣].

وكان ﷺ يقدمهم في أمور كثيرة:

ومن ذلك تقديمهم في الكلام: ففي قصة الرجل الذي قتل بخيبر وجاء رجلان من قومه ليكلما رسول الله في أمره: فانطلقَ عبدُ الرّحمنِ بنُ سهلٍ ومحيّصةُ وحويّصةُ ابنا مسعودٍ إلى النّبيِّ ﷺ، فذهبَ عبدُ الرّحمنِ يتكلّمُ فقالَ: «**كبّرْ كبّرْ**» وهوَ أحدثُ القومِ فسكتَ، فتكلّما[٤].

«**كبّر كبّر**» أي: قدّمِ الكبيرَ السّنِّ[٥].

وتقديمهم في السقاية: أخرجَ أبو يعلى عن ابن عباس قالَ: «كانَ رسول الله ﷺ إذا سقى قالَ: «**ابدءوا بالكبيرِ**» أوْ قالَ: «**بالأكابرِ**»[٦].

---

(١) أي: الذي فيه قتل دريد، وقد كان شيخاً فانياً.

(٢) رواه أبو داود [٢٦٦٩]، وابن ماجة [٢٨٤٢]، وصححه الألباني في الصحيحة [٧٠١].

(٣) شرح معاني الآثار [٣/ ٢٢٤].

(٤) رواه البخاري [٣١٧٣] ومسلم [١٦٦٩].

(٥) فتح الباري [١/ ١٧٧].

(٦) رواه أبو يعلى [٢٤٢٥]، وقال ابن حجر: «سنده قويٌّ». فتح الباري [١٠/ ٨٧].

وتقديمهم في الإمامة:

عنْ أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ لنا رسولُ الله ﷺ: «**يؤمُّ القومَ أقرؤهمْ لكتابِ الله وأقدمهمْ قراءةً، فإنْ كانتْ قراءتهمْ سواءً فليؤمّهمْ أقدمهمْ هجرةً، فإنْ كانوا في الهجرةِ سواءً فليؤمّهمْ أكبرهمْ سنّاً**»(١).

وتقديمهم في البدء بالسلام عليهم:

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «**يسلّمُ الصّغيرُ على الكبيرِ، والمارُّ على القاعدِ، والقليلُ على الكثيرِ**»(٢).

وتقديمهم في الإعطاء:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**أراني في المنامِ أتسوّكُ بسواكٍ، فجذبني رجلانِ أحدهما أكبرُ منْ الآخرِ، فناولتُ السّواكَ الأصغرَ منهما فقيلَ لي: كبّرْ. فدفعتهُ إلى الأكبرِ**»(٣).

قال ابن بطال: «فيه: تقديم ذي السنِّ في السواك، وكذلك ينبغي تقديم ذي السنِّ في الطعام والشراب والكلام والمشي والكتاب وكل منزلة؛ قياساً على السواك واستدلالا من قوله «ﷺ» لحويصة ومحيصة: «كبّرْ كبّرْ» يريد: ليتكلّمِ الأكبرُ، وهذا من باب أدب الإسلام.

وقال المهلّب: تقديم ذي السّنِّ أولى في كل شيءٍ ما لم يترتّبِ القومُ في الجلوس، فإذا ترتّبوا فالسنة تقديم الأيمن فالأيمن من الرئيس أو العالم، على ما جاء في حديث شرب اللبن»(٤).

قال ابن حجر: «وهوَ صحيحٌ»(٥).

فعنْ سهلِ بنِ سعدٍ السّاعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ أتيَ بشرابٍ فشربَ منهُ وعنْ يمينهِ غلامٌ وعنْ يسارهِ الأشياخُ.

---

(١) رواه مسلم [٦٧٣].

(٢) رواه البخاري [٦٢٣١]، ومسلم [٢١٦٠].

(٣) رواه مسلم [٢٢٧١].

(٤) شرح صحيح البخارى لابن بطال [١/ ٣٦٤].

(٥) فتح الباري [١/ ٣٥٧].

فقالَ للغلامِ: «**أتأذنُ لي أنْ أعطيَ هؤلاءِ**».

فقالَ الغلامُ: لا والله يا رسولَ الله، لا أوثرُ بنصيبي منكَ أحداً.

قالَ: فتلّهُ[١] رسولُ الله ﷺ في يدهِ[٢].

قال النووي: «وفعلَ ذلكَ أيضاً تألّفاً لقلوبِ الأشياخ، وإعلاماً بودّهمْ وإيثار كرامتهمْ إذا لمْ تمنع منها سنّة، وتضمّنَ ذلكَ أيضاً بيان هذهِ السّنّة، وهيَ أنَّ الأيمن أحقّ، ولا يدفع إلى غيره إلّا بإذنهِ، وأنّهُ لا بأس باستئذانهِ»[٣].

فتقديم الكبير مخصوص بما إذا لم يكن الحق لغيرهم.

فمن هذه الأحاديث يتبيّنُ لنا كيف كان النبي ﷺ يقدّمُ الكبيرَ على الصغيرِ؛ وذلك لما له من الحقِّ، ولما له من الخبرةِ والمعرفةِ أكثر من غيره من حدثاء السّنِّ.

وتقديمه للكبير فيه إشعار بتكريمه، وعدم إهانته؛ لأن الصغير عندما يتقدّم على الكبير سيتأثّر الكبير، فلذلك أمر الرسول ﷺ بأن يقدّمَ الكبيرُ.

وكان يخفف عنهم في كثير من الأحكام الشرعية:

- **فمن ذلك: تشريعه الاستنابة عن الكبير في الحج إذا ضعف عن الحج بنفسه:**

عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: جاءتْ امرأةٌ منْ خثعمَ، فقالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ فريضةَ الله على عبادهِ في الحجِّ أدركتْ أبي شيخاً كبيراً لا يثبتُ على الرّاحلةِ أفأحجُّ عنهُ؟

قالَ: «**نعمْ**»[٤].

- **ومن ذلك: إعفاؤه من الصيام في الكفارة؛ لضعفه، والانتقال إلى الإطعام:**

في حديث خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت قالت: فقالَ لي رسولُ الله ﷺ: «**مريهِ، فليعتقْ رقبةً**».

---

(١) أي: وضعه في يده ودفعه إليه.

(٢) رواه البخاري [٢٣١٩] ومسلم [٢٠٣٠].

(٣) شرح صحيح مسلم [١٣/ ٢٠١]

(٤) رواه البخاري [١٥١٣] ومسلم [١٣٣٤].

قالتْ: فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عندهُ ما يعتقُ.

قالَ: «**فليصمْ شهرينِ متتابعينِ**».

قالتْ: فقلتُ: والله يا رسولَ الله إنّهُ شيخٌ كبيرٌ ما بهِ منْ صيامٍ.

قالَ: «**فليطعمْ ستّينَ مسكيناً وسقاً منْ تمرٍ**».

قالتْ: قلتُ والله يا رسولَ الله ما ذاكَ عندهُ.

قالتْ: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**فإنّا سنعينهُ بعرقٍ منْ تمرٍ**».

قالتْ: فقلتُ: وأنا يا رسولَ الله سأعينهُ بعرقٍ آخرَ.

قالَ: «**قدْ أصبتِ، وأحسنتِ، فاذهبي، فتصدّقي عنهُ، ثمَّ استوصي بابنِ عمّكِ خيراً**».

قالتْ: ففعلتُ[١].

- **ومن ذلك: أمره ﷺ الأئمة الذين يصلّون بالناس أن يخففوا الصلاة مراعاة لكبار السن الذين خلفهم:**

عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إذا صلّى أحدكمْ للنّاسِ فليخفّفْ؛ فإنَّ منهمْ الضّعيفَ، والسّقيمَ، والكبيرَ، وإذا صلّى أحدكمْ لنفسهِ؛ فليطوّلْ ما شاءَ**»[٢].

وكان ﷺ يذكّر كبار السّنِّ بالله لقرب أجلهم:

كبير السن قريب من الموت فعليه أن يتوب، ويستعد للقاء الله، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، قال ابن عباس: «يعني الشّيبَ»[٣].

عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «**أعذرَ الله إلى امرئٍ أخّرَ أجلهُ حتّى بلّغهُ ستّينَ سنةً**»[٤].

---

(١) رواه أحمد [٢٦٧٧٤] وأبو داود [٢٢١٤]، وصححه الألباني في الإرواء [٢٠٨٧]، وقد سبق.

(٢) رواه البخاري [٦٧١] ومسلم [٤٦٨].

(٣) تفسير ابن كثير [٦/ ٤٩٣]، وعلقه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه.

(٤) رواه البخاري [٦٠٥٦].

«**أعـذرَ الله**» الإعذارُ: إزالةُ العذرِ، والمعنـى: أنّهُ لمْ يبقَ لهُ اعتذارٌ، كأنْ يقولَ: لوْ مدَّ لي في الأجلِ؛ لفعلتُ ما أمرتُ بهِ.

يقالُ: أعذرَ إليهِ إذا بلّغهُ أقصى الغايةِ في العذرِ، ومكّنهُ منهُ.

وإذا لمْ يكـنْ لـهُ عذرٌ في تركِ الطّاعةِ معَ تمكّنِهِ منها بالعمـرِ الّذي حصلَ لهُ، فلا ينبغي لهُ حينئذٍ إلّا الاستغفارُ، والطّاعةُ، والإقبالُ على الآخرةِ بالكلّيّة[١].

قالَ ابن بطّال: «أي: أعذر إليه غاية الإعذار الذي لا إعذارَ بعده؛ لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سـنُّ الإنابةِ، والخشـوعِ، والاستسـلامِ لله تعالى، وترقّبِ المنيّةِ ولقاءِ الله تعالى.

فهـذا إعذارٌ بعدَ إعذارٍ في عمرِ ابـن آدم؛ لطفاً من الله لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالـة العلم، وأعذر إليهـم مرّةً بعد أخرى، ولم يعاقبهم إلا بعـد الحجج اللائحة المبكّتة لهم»[٢].

وكان يحذّرهم من الحرص على الحياة، وجمع المال:

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**قلبُ الشّيخِ شابٌّ على حبِّ اثنتينِ: طولِ الحياةِ، وكثرةِ المالِ**»[٣].

ولفظ البخاري: «لا يزالُ قلبُ الكبيرِ شابّاً في اثنتينِ: في حبِّ الدّنيا، وطولِ الأملِ».

ومعناهُ: أنَّ قلب الشّيخ كامل الحبِّ للمالِ محتكم في ذلكَ كاحتكامِ قوّة الشّابّ في شبابهِ[٤].

وعـنْ أنسِ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسـولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «**يهرمُ ابنُ آدمَ، وتشـبُّ منهُ اثنتانِ: الحرصُ على المالِ، والحرصُ على العمرِ**»[٥].

---

(١) فتح الباري [١١/ ٢٤٠].

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال [١٠/ ١٥٣].

(٣) رواه البخاري [٦٤٢٠]، ومسلم [١٠٤٦] واللفظ له.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [٧/ ١٣٨].

(٥) رواه البخاري [٦٤٢١]، ومسلم [١٠٤٧]، واللفظ له.

«**يهرمُ**» أيْ: يشيبُ ويضعفُ «**ويشبُّ**» أيْ: ينمو ويقوى «**منهُ**» أيْ: منْ أخلاقِهِ «**الحرصُ على المالِ**» أيْ: جمعِهِ ومنعِهِ «**والحرصُ على العمرِ**» أيْ: طولِهِ[١].

قالَ القرطبيُّ: «في هذا الحديثِ: كراهةُ الحرصِ على طولِ العمرِ، وكثرةِ المالِ، وأنَّ ذلكَ ليسَ بمحمودٍ.

والحكمةُ في التّخصيصِ بهذينِ الأمرينِ: أنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى ابنِ آدمَ نفسهُ، فهوَ راغبٌ في بقائها، فأحبَّ لذلكَ طولَ العمرِ، وأحبَّ المالَ؛ لأنّهُ منْ أعظمِ الأسبابِ في دوامِ الصّحّةِ الّتي ينشأُ عنها غالباً طولُ العمرِ، فكلّما أحسَّ بقربِ نفادِ ذلكَ، اشتدَّ حبّهُ، ورغبتهُ في دوامهِ»[٢].

وعدَّ الذنب من الرجل الكبير في السّنِّ أعظمَ من غيره:

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلّمهمْ الله يومَ القيامةِ، ولا يزكّيهمْ، ولا ينظرُ إليهمْ، ولهمْ عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ**»[٣].

ففي هذا الحديث: وعيدٌ شديدٌ للشّيخ الزّاني، والملك الكذّابِ، والعائل المستكبر.

وسببه: أنَّ كلَّ واحد منهمُ التزمَ المعصية المذكورة معَ بعدها منهُ، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده؛ وإنْ كانَ لا يعذر أحدٌ بذنبٍ، لكنْ لمّا لمْ يكنْ إلى هذهِ المعاصي ضرورة مزعجة، ولا دواعي معتادة أشبهَ إقدامهمْ عليها المعاندةَ، والاستخفاف بحقِّ الله تعالى، وقصد معصيته لا لحاجةٍ غيرها[٤].

وكان ينهاهم عن إزالة الشيب:

عنْ عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدّهِ أنَّ النّبيَّ ﷺ نهى عنْ نتفِ الشّيبِ وقالَ: «**إنّهُ نورُ المسلمِ**»[٥].

---

(١) تحفة الأحوذي [٦/ ٥٢٠].

(٢) فتح الباري [١١/ ٢٤١].

(٣) رواه مسلم [١٠٧].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [٢/ ١١٧].

(٥) رواه الترمذي [٢٨٢١]، والنسائي [٥٠٦٨]، وابن ماجة [٣٧٢١]، وقال الألباني: «صحيح لغيره». صحيح الترغيب والترهيب [٢٠٩١].

وفي رواية: «**لا تنتفوا الشّيبَ، ما منْ مسلمٍ يشيبُ شيبةً في الإسلامِ إلّا كانتْ لهُ نوراً يومَ القيامةِ**».

وفي رواية: «**إلّا كتبَ الله لهُ بها حسنةً وحطَّ عنهُ بها خطيئةً**»(١).

وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**لا تنتفوا الشّيبَ؛ فإنّهُ نورٌ يومَ القيامةِ، ومنْ شابَ شيبةً في الإسلامِ كتبَ لهُ بها حسنةٌ، وحطَّ عنهُ بها خطيئةٌ، ورفعَ لهُ بها درجةٌ**»(٢).

وكان يحثّهم على تغيير الشيب:

عنْ جابرِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: أتيَ بأبي قحافةَ عامَ الفتحِ، ورأسهُ ولحيتهُ مثلُ الثّغامِ أوْ الثّغامةِ(٣)، فأمرَ بهِ إلى نسائهِ وقالَ: «**غيّروا هذا بشيءٍ**»(٤).

قال النووي: «يستحبُّ خضاب الشّيب للرّجلِ والمرأة بصفرةٍ أوْ حمرة، ويحرم خضابه بالسّوادِ لقولهِ ﷺ: «**واجتنبوا السّواد**»(٥).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إنَّ اليهودَ والنّصارى لا يصبغونَ؛ فخالفوهمْ**»(٦).

والمراد بهِ صبغ شيب اللّحية والرّأس، ولا يعارضهُ ما وردَ منَ النّهي عنْ إزالة الشّيب؛ لأنَّ الصّبغ لا يقتضي الإزالة(٧).

---

(١) رواه أبو داود [٤٢٠٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٧٤٦٣، ٥٧٦٠].

(٢) رواه ابن حبان [٢٩٨٥] وقال الألباني: «حسن صحيح». التعليقات الحسان [٣٢٩].

(٣) هوَ نبت أبيضُ الزّهر والثّمرِ يشبّه بهِ الشّيب. النهاية [١/ ٢١٤].

(٤) رواه مسلم [٣٩٢٤].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم [١٤/ ٨٠].

(٦) رواه البخاري [٣٤٦٢]، ومسلم [٢١٠٣].

(٧) فتح الباري [٦/ ٤٩٩].

يفيضُ القلبُ حبّاً، وامتناناً ... لآبـــاءٍ لـنـا بهـــمُ افـتـخـارُ
إليهمْ ننتمي، وبـهـمْ شرفنا ... وقـدْ عـمـرتْ بآبائي الـدّيـارُ
وخيرٌ لي مـنَ الدّنيا دعاهمْ ... فـذلـكَ خـيرُ مـا ربـحَ التّجارُ
وصـــاةُ نبيّنا بـالـشّـيـبِ منّا ... نـوقّـرهـمْ، وحـقَّ لهـمْ وقـارُ
يـقـدّرهـمْ كـأنّـهـمُ مـلـوكٌ ... ويـرحـمـهـمْ كـأنّهـمُ صـغـارُ
يـقـدّمـهـمْ لسنّهمُ احـتـراماً ... لهـمْ مـنْ بـينِ قومهمُ الـصّـدارُ
إذا جـــاءوهُ هـشَّ لهمْ وحيّا ... وطـــابَ لهـمْ بمجلسهِ الجـوارُ
ومازحهمْ وضاحكهمْ بلطفٍ ... ولـــذَّ لـهـمْ بمزحتهِ الـحـوارُ
يـعـرّفـهـمْ مـواسـمَ كـلِّ خيرٍ ... لـيـبـتـدروهُ، والخـــيرُ ابـتـدارُ
ويطمعهمْ بعفوِ الله عنهمْ ... إذا صـحَّ المـتـابُ والانكسارُ
ويصفحُ عنْ إساءتهمْ ويعفو ... وخـيرُ العفوِ مـا معهُ اقـتـدارُ
يخفّفُ عنهمُ، والـدّيـنُ يسرٌ ... وأولى الـنّـاسِ باليسرِ الكبارُ
ومـنْ جشعٍ يحذّرهمْ نصوحاً ... لـقـدْ نـفـعَ الـتّـيـقّـظُ والحـــذارُ